

## نشأته وسيرته

[١]

ولد بشار في أواخر القرن الأول للهجرة - سنة ٩٥ على الأرجح - وكانت ولادته بالبصرة. أما أين منها، فتحقيقة عناء لا طائل تحته ولا خير فيه. وأبوه "برد" من سبى المهلب بن أبي صفرة على الشائع. ويروى بعضهم أن أمه كانت لرجل من الأزد أراد أن يتزوج امرأة من بنى عقيل، فأعتقته. والروايات متفقة على أنه ولد على الرق، وأن التي أعتقته امرأة عقيلية. وأبوه برد بن يرجوخ. وإذا صح أن حماد عجرد هجا بشارا بهذه الأبيات:

يا بن برد إخسأ إليك فمثل الـ كلب في الناس أنت لا الإنسان  
بل لعمري لأنت شر من الكلد سب وأولى منه بكل هوان  
ولريح الخنزير أهون من ربـ حك يا بن الطيان ذى التبان<sup>(١)</sup>

فأبوه برد كان طيانا يضرب اللبن، ومع ذلك يذكرون لبشار نسبها طويلا يصل إلى الجلد السادس والعشرين! ولاشك أن اختراع هذا النسب بعض ما أغرت به الشهوة التي نالها الشاعر، وقد جرى الذي اخترعه على عادة العرب في حفظ الأنساب والعناية بها وإن لم يكن الفرس دونهم عناية بالأنساب من جراء نظام الطبقات عندهم.

---

(١) التبان: سراويل قصير كالذى يتخذه لاعبو الكرة

وكل ما يستفاد من هذا النسب الملقق هو أن بشارا فارسى . وقد أغنانا  
هو عن هذا العناء بقوله يفخر بأصله :

ونبتت قوما بهم جنة      يقولون من ذا؟ وكنيت العلم  
ألا أيها السائلى جاهدا      ليعرفنى، أنا أصل الكرم  
نمت فى الكرام - بنى عامر -      فروعى، وأصلى قریش العجم

وزعموا أن بشار قال إنه من طخارستان - غربى نهر جيحون - "ومن  
أكثرها فى الفرسان" وهذا فخر بالأصل العام لا بالمنتب الخاص، وبالقومىة  
الفارسية التى أдал العرب دولتها، ومحوها ملكها وعزتها، ولم يستطيعوا أن  
يميتوها فبقيت حية متحفزة حتى قاسمت العرب دولتهم ومجدهم وتراثهم،  
ثم استرجعت ولغتها وإن كانت قد بقيت على الإسلام.

وقد ألقى بشار بهذا الفخر فى وجه المهدي الخليفة العباسى الثالث جوابا  
عن سؤاله " فيمن تعتد يا بشار " فقال " أما اللسان والزى فعرييان، وأما  
الأصل فعجمى، كما قلت فى شعرى يا أمير المؤمنين " .

وأشد الأبيات التى أوردناها .

وكان حسبه أن يفخر بنفسه، وبما رزق من المزية والفضل، كما فعل

المتبنى حين قال :

لا بقومى فخرت، بل فخرت بى      وبنفسى شرفت لا بجدودى

مؤثرا أن يبدى الغنى عن استمداد بواعث الفخر من الآباء والجدود .

وكل من المتبنى وبشار كان يشعر بضعة أصله . وأحسب أن كليهما كان يثقل  
على نفسه هذا الشعور . وفى طباع الانسان أن يحاول تعويض ما يعلم أنه فيه

من النقص أو العيب أو القصور. فأما بشار فأهمل ذكر أبيه واندمج في قومه  
الفرس، وراخ يفيض على نفسه - أو يتقبس لها - من مجدهم التالد. ولم  
يكفه ذلك فقال ضمنا: إنه إذا كان أهله قد أحنى عليهم الدهر، وجر عليهم  
الفتح العربي السبى والفقر، فقد كانوا قبل ذلك من الفرس بمنزلة قريش من  
العرب. وهذا احتيال لتعويض ما يحسه الشاعر من هو إن الأصل على الواقع  
في زمنه كائنا ما كان الأصل في الزمن الخالي.

وأما المتبنى فقد ترك المألوف من التفاخر والجدود، وقال إن نفسه  
سودته، وإن المجد الحقيقي هو الشجاعة والطعنة البكرو "تضريب أعناق  
الملوك".

### وترك الدنيا دويًا كأنما تدوال سمع المرء أمّله العشر

وما كان ليشار - وهو أعمى - أن يذهب هذا المذهب. ومثل بشار،  
مهيار الديلمي في أنه فارسى، وأنه فخر حين عرض له ما يدعو إلى الفخر،  
بأصله الفارسى. غير أن مهيارا كان حديث الإسلام على يدى أستاذه الشريف  
الرضى. فجعل الفخر قسمة بين الفرس والعرب وقال:

وأبى كسرى علا ايوانه أين فى الناس أب مثل أبى؟

قد قبست المجد من خير أب وقبست الدين من خير نبى

وضممت الفخر من أطرافه سوّدد الفرس ودين العرب

وهذا معقول من رجل حديث العهد بالخروج من المجوسية إلى

الإسلام، أما بشار فكان أعمى لا يستطيع أن يفخر كالمتبنى بالفروسية  
والشجاعة، وكان "متحيرا مخلطا" انتهى به الأمر إلى الاتهام بالزندقة، فإذا

كان قد اكتفى من ذكر العرب في هذا المقام بنمو "فروعه" - لا أصوله - في "الكرام بنى عامر" - وما أقل ذاك! فلا عجب. وقد فخر في أبيات له بفضلته ولكنه إنما فعل ذلك ليبراً من ولاء العرب كما سنرى فيما بعد.

وفى الروايات عن أبيه برد بن يرجوخ بعض الاختلاف، فأحداها تقول إن بردا هذا فى خيرة القشيرية امرأة اللهب بن أبى صفرة. وكان مقيماً لها فى ضيعتها بالبصرة، المعروفة "بخيرتان" مع عبيد لها واماء. فوهبت برداً - بعد أن زوجته - لامرأة من بنى عقيل كانت متصلة بها. فولدت له امرأته، وهو فى ملكها، بشارا، فأعتقته العقيلية.

وتقول رواية أخرى إن بردا كان مولى "أم الظباء العقيلية الدوسية" وقد تكون أم الظباء هذه هى التى وهبتها خيرة القشيرية بردا وامرأته. على أن أبا الفرج يروى أن أم الظباء هى امرأة أوس بن ثعلبة أحد بنى تيم اللات ابن ثعلبة. وكان أحد فرسان بكر بن وائل بخرسان.

ويظهر أن بردا كان حاذقاً فى صناعته. ولم يكن بها رقيق الحال فقد حكى بعضهم أن أباه أراه بيتين له وقال "لبن هذين البيتين من ضرب برد أبى بشار" على أنه لا حاجة بنا إلى الاستنتاج فقد قال أبو عبيدة عنه "كان برد أبو بشار طيانا حاذقاً بالتطين".

وكان بشار متلونا فى ولائه، يفتخر مرة بولاء بنى عقيل من قيس عيلان  
فيقول:

اننى من بنى عقيل بن كعب      موضع السيف من طلى الأعناق

ويمدحهم فيقول:

أمنت مضرة الجهلاء إني أرى قيسا تضر ولا تضر  
كأن الناس حين تغيب عنهم نبات الأرض أخطأه القطار

ومرة يتبرأ من ولاء العرب جميعا ويتمرد عليهم قاطبة فيقول:

أصبحت مولى ذى الجلال، وبعضهم مولى العريب، فخذ بفضلك فافخر  
مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعال ومن قريش المشعر  
فارجع إلى مولاك غير مجافع سبحان مولاك الأجل الأكبر

وليس هذا منه عن تدين وإيمان. وإنما هو مخرج له من الولاة الذى  
استثقله عليه، وعلى أن "ذا الجلال" هنا تعبير عام ليس من الضرورى أن  
يكون مدلوله عنده ما يفهمه منه المسلم.

وغير مستغرب أن يفخر بشار بقومه الفرس فى مجلس الخليفة  
العباسى، العربى، فقد كان الفرس هم الذين بثوا الدعوة فى خراسان، ومنها  
"آل البيت" ولابراهيم الامام أولا، ثم لأبى العباس، وكان أبو مسلم  
الخراسانى هو الذى تغلب على البلاد باسم آل البيت ثم فوجئت الكوفة بتزكية  
أبى العباس ومبايعته. فاحال كانت تسعف من يتعصب للعجم كبشار، وتغرى  
الشعور القومى بين الفرس بالظهور بعد أن صار لهم شأن. فما كان قيام  
الدولة العباسية إلا مظهرا لانتصار العنصر الفارسى على العنصر العربى، والا  
إيدانا بوشك اصباغ الحياة فى مظاهرها المختلفة فى البلاد الإسلامية الشرقية  
بصبغة أجنبية، ونقول البلاد الإسلامية الشرقية لأنها كانت موطن الصراع بين  
الفرس الذين ذهب دولتهم والعرب الذين جاءت دولتهم. أما منها بل كانت  
خاضعة للروم، فلما فتحها العرب لم يختلف حالها من هذه الناحية، وآتاها

الحكم العربي العدل والحرية فرضيت وسكنت ودخلت في الإسلام فصارت لها قومية دينية أعم من قوميتها الخاصة.

[٢]

وقد ولد بشار مكفوا، وفي ذلك يقول:

عميت جنينا، والذكاء من العمى فحئت عجيب الظن، للعلم موثلا

ونشأ في البصرة وتعلم على شيوخها، فلما أيقع أخرج إلى البادية.

روى بعضهم أنه سأل بشارا "ليس لأحد من الشعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه، وإنه ليس في شعرك ما يشك فيه" فقال "ومن أين يأتيني الخطأ؟! ولدت هنا، ونشأت في حجبور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ. وإذا دخلت إلى نسائهم، فنساؤهم أفصح منهم. وأيفت فأبديت، إلى أن أدركت. فمن أين يأتيني الخطأ".

ومؤدى هذا - على ما فيه من المبالغة - أنه أخذ اللغة عن علمائها الحضر والبادية.

وقال الشعر وهو صبي، لم يبلغ العاشرة، فلما بلغ الحلم كان مخشى مرة لسانه لسلطته وافحاشه في الهجاء.

ووصفه الأصمعي فقال: "كان بشار ضخما عظيم الخلق والوجه، مجدورا جاحظا المقتلين، قد تغشاهما لحم أحمر، فكان أقبح الناس عمى وأفظعه منظرا، وكان إذا أراد أن ينشد صفق يديه، وتنحج، وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتي بالعجب".

وقال هو فى صفة نفسه "والله إنى لطويل القامة، عظيم الهامة، تام الألواح، أسجح الخدين، ولرب مسترخى المذورين، للعين فيه مراد قد جلس من الفتاة حجرة، وجلست منها حيث أريد".

وقال كوفى "مررت ببشار وهو منبطح فى دهليزه كأنه جاموس فقلت له يا أبا معاذ من القائل:

فى حلتى جسم فتى ناحل      لوهبى الريح به طاحا".

قال أنا. فقلت "والله إنى لأرى أن لو بعث الله الريح التى أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك" قال "يا أهل الكوفة ما تدعون ثقلكم ومقتكم على كل حال!".

على أنه لم يكن يخفى عليه أنه قبيح الوجه مشنوء المنظر. قالت له امرأة "ما أدرى لم يهابك الناس مع قبح وجهك" فقال لها "ليس من حسنه يهاب الأسد".

وكرر هذا المعنى فى شعره فقال:

ولى المهابة فى الأحبة والعدا      وكأننى أسد له تامور<sup>(١)</sup>

غرئت حليلته وأخطأ صيده      فله على لقم الطريق زئير

ويؤخذ من أخباره أنه لم ينفرد بضخامة الجثة، وطول القامة، وأن أخويه كانا مثله جسامه، فقد روى أنه كان له أخوان يقال لأحدهما بشر، وللآخر بشير، وكانا قصابين. وكان بشار بارا بهما، وكان أخواه يستعيران ثيابه فيوسخانها ويتتان ريحها، فاتخذ قميصا له جببيان وحلف ألا يعيرهما

(١) التامور: العرين.

ثوبا من ثيابه، فكانا يأخذانها بغير إذنه، فإذا دعا بثوبه فلبسه فأنكر رائيته قال "أينما أتوجه ألقى سعدا" وهو مثل يضرب لمن يلقي سوء المعاشرة في كل مكان، فإذا أعياه الأمر خرج إلى الناس في تلك الثياب، على ننتها ووسخها، فيقال له "ما هذا يا أبا معاذ؟" هذه ثمرة صلة الرحم.

فلولا أنهما مثله طولا وعرضا لما صلحت ثيابه لهما.

وكان يكنى أبا معاذ ويلقب بالمرعث. وزعم بعضهم أنه إنما سمي المرعث لقوله:

قال ريم مرعث ساحر الطرف والنظر  
لست والله نائلي قلت أو يغلب القدر

وزعم آخرون أنه إنما لقب بالمرعث لأنه كان في أذانه وهو صغير رعاث أي قرطة - ولعل هذا أصح تعليل وأقربه إلى الصواب.

على أن هناك من يزعم أنه إنما سمي المرعث لأنه كان لقميصه جيبان جيب عن يمينه، وجيب عن شماله - فإذا أراد لبسه ضمه عليه من غير أن يدخل رأسه فيه، وإذا أراد نزعته حل أزراره وخرج منه، فشبهت تلك الجيوب بالرعاث لاسترسالها وتدليلها، وسمى من أجلها المرعث وهذا تعليل لا يخفى ما فيه من التكلف الشديد.

وقد لهج بشار منذ حدائته بالهجاء، وكان وهو صغير يهجو الناس فيجيئون إلى أبيه، فيشكونه، فيضربه ضربا شديدا على حبه له، فكانت أمه تقول "كم تضرب هذا الصبي!.. أما ترحمه؟" فيقول "بلى والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى".

قالوا فسمعه بشار فطمع فيه فقال له " يا أبت! إن هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر، وإنى إن ألمت عليه أغنيتك وسائر أهلى، فإن شكونى إليك فقل " أليس الله يقول " ليس على الأعمى حرج... " فلما عاودوا شكواه قال لهم برد ما قاله بشار، فأنصرفوا وهم يقولون " فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار ".

ويظهر من هذا الخبر - إذا صح - إن بردا كانت فيه سذاجة وجهل، فما كانت شكوى الناس من بشار لأنه يقول الشعر، بل لأنه ييسط لسانه فيهم، وقد أطاع غلامه ورد على الشاكين بما لقنه، وكف عن ضربه بعد أن كان يقسو عليه ويوجعه، ولعه طمع فيما وعده من الغنى، وقد كان برد يستبشر ببشار ويقول عنه " ما رأيت مولودا أعظم منه بركة، ولقد ولد لى وما عندى درهم، فما حال الحول حتى جمعت مائتى درهم "

على أن بردا لم يطل به العمر حتى يدرك الغنى الموعود، فقد جاء فى خبر أن بردا لم يمت حتى قال بشار الشعر. والمعروف أنه قاله وهو صغير، ولا جديد فى هذا الخبر إلا ما يدل عليه ضمنا من أن بردا وافاة الحين وبشار فى صدر حياته.

ولسنا نعرف عن أمه شيئا - حتى ولا اسمها، وأكبر الظن أنها ماتت وبشار فتى. فما يرد لها ذكر إلا فى أخبار حدائته.

وكان مولد بشار على ما هو مرجح في سنة ٩٥هـ أى في آخر سنة من خلافة الوليد بن عبد الملك. وشب في عهد سليمان بن عبد الملك، وابن عمه عمر بن عبد العزيز - ثانى العمرين - ويزيد بن عبد الملك وأخيه هشام، والوليد الثانى، ويزيد بن الوليد الأول، وإبراهيم أخيه - إلا إذا أسقطناهم من عداد الخلفاء لقصر عهده واقتصاره على دمشق وضواحيها - ومروان الثانى آخر بنى أمية. وقد سقطت دولتهم فى سنة ١٣٢هـ وكان بشار حينئذ فى العقد الرابع من عمره، وكان له حوالى ربيع قرن وهو يقول الشعر، ومع ذلك لم يبق لنا إلا أقل من القليل من أخباره وشعره فى العهد الأموى ولعل ما كان يتكسب به منه، وقد طوى بعد أن جاء العباسيون.

من هذا القليل الباقي بائته المشهورة فى مدح ابن هبيرة - وهى التى يقول فيها:

إذا كانت فى كل الأمور معاتباً      صديقك، لم تلق الذى لا تعاتبه  
 فعش واحداً أوصل أخاك فانه      مقارف ذنب مرة ومجانبه  
 إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى      ظمئت، وأى الناس تصفو مشاربه  
 ومنه أيضاً قصيدة مدح بها سليمان بن هشام بن عبد الملك وقال فيها:

أغر هشامى القناة إذا انتمى      نتمه بدور ليس فيهن كوكب  
 فوصلة بخمسة آلاف درهم فلم يرضها واستقلها وانصرف مغضباً  
 وهجاه بأبيات قال فى آخرها:

فاكحل بعبدة مقلتيك من القذى وبوشك رؤيتها من الهملان  
فلقرب من تهوى وأنت متيم أشقى لدائك من بنى مروان  
ورجع إلى العراق فبره ابن هبيرة ووصله، وكان يعظم بشارا ويقدمه  
لمدحه قيسا وافتخارا بهم<sup>(١)</sup>.

وقد يستدل على رأيه في الدولتين جميعا: الأموية والعباسية - بعد هذه  
القصيدة - بقصيدته الميمية التي يقال إنه هجا فيها أبا جعفر المنصور ثاني  
الخلفاء العباسيين، ثم خاف وغير ما فيها وبدل وأظهر أنه كان قالها في أبي  
مسلم الخراساني، وأولها:

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم  
فقلب هذا البيت فقال "أبا مسلم":

على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه فى المأزق المتلاحم  
كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم، ولم تسمع بفتك الأعاجم  
تقسم كسرى رهطه بسيوفه وأمسى أبو العباس أحلام نائم  
يعنى الوليد بن يزيد، وكان خليعا مسفا فثار عليه يزيد بن الوليد الأول  
واقترح الثوار عليه القصر واحتزوا رأسه:

---

(١) كان يزيد بن هبيرة أمير العراق من قبل الأمويين. فلما جاء العباسيون ضيقوا عليه فى  
واسط فحاول أن يثير عبد الله بن الحسن أحد أحفاد الامام على ويحضه على جمع  
خصوم العباسيين حوله. ثم يش، فعرض الطاعة مشرطا الأمان لنفسه وأتباعه ولكن أبا  
مسلم أشار بقتله وألح فى ذلك فقتل.

وقد كان لا يخشى انقلاب مكيدة  
مقيما على اللذات حتى بدت له  
وقد ترد الأيام غمرا وربما  
ومروان قد دارت على رأسه الرحي  
فأصبحت تجرى سادرا في طريقهم  
تجردت للإسلام تعفو سبيله  
فما زالت حتى استنصر الدين أهله  
عليه، ولا جرى النحوس الأشائم  
وجوه المنايا حاسرات الأسمائم  
وردن كلوحا باديات الشكائم  
وكان - لما أجمت - نزر الجرائم  
ولا تبقى أشباه تلك النقائم  
وتعري مطاه لليوث الضراغم  
عليك فعاذوا بالسيوف الصوارم

ولعله يشير إلى ثورة عبد الله بن علي، على المنصور، وكان عاملا على الشام فنادى بالبيعة لنفسه فأنفذ إليه المنصور جيشا على رأسه أبو مسلم الخراساني فهزمه بالقرب من نصيبين.

فرم وزرا ينجيك يابن سلامة  
فلمست بناج من مضيم وضائم  
جعل موضع "بابن سلامة" "يابن وشيكة" وهي أم أبي مسلم

لحا الله قوما رأسوك عليهم  
وما زلت مرءوسا خبيث المطاعم  
أقول لبسام، عليه جلالة  
غدا اريحيا عاشقا للمكارم  
من الفاطميين الدعاة إلى الهدى  
جهارا، ومن يهديك مثل ابن فاطم

هذا البيت يقال إنه خافه فحذفه من القصيدة

سراج لعين المستضىء، وتارة  
يكون ظلما للعدو المزاحم  
وقد هجا المهدي وحرص عليه الأمويين الذين هجاهم فقال:

بنى أمية هبوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود  
وكان وزير المهدي

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزق والعود  
وما نظم أن أحداً سيزعم أن بشارا كان يتشيع، فقد كان رجلا حولاً  
قلبا لا يعنيه إلا ما يرجو أن يصيبه من خير أو يدفعه من شر. واتهم  
بالزندقة، وقيل فيه إنه بقى متحيراً مغلطاً، على أن هذا بحث نرجئه إلى  
موضعه من الكتاب.

\*\*\*

فقال " إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع،  
ومن أراد من الشعراء أن يكرم في دهر اللثام على المديح فليستعد للفقر، وإلا  
فليبالغ في الهجاء فيعطى "

وقد مر بك قوله لأبيه " إني إن ألمت عليه (أى الشعر أغنيتك وسائر  
أهلى فإن شكونى إليك فقل لهم أليس الله يقول ليس على الأعمى  
حرج... "

فهو كان يهجو الناس ويبسط لسانه فيهم، ويشنع عليهم، ليرهبهم  
ويخفيهم ويظفر بمالهم، أو يبتزه على الأصح، فيعيش مترفا منعما موسعا  
عليه، ومتقى، مخشى اللسان. وإذا كان على ضخامة جثته؛ ومثانة أسره،  
وشدة بنيانه، لا يستطيع أن يكون فاتكا، لما منى به من العمى، فقد اتخذ من  
لسانه أداة للفتك والبطش، ووسيلة إلى استشعار القوة، وإفادة العزة. قالت  
له بنته مرة " يا أبت. مالك يعرفك الناس ولا تعرفهم. " قال: " هكذا الأمير  
يا بنية " .

ولم يكن ولوعه بالهجاء والتفحم على الناس بالشتم، لحقد دفين  
ينطوى عليه، وعداوة كامنة يمسكها فى قلبه، وضراوة طبيعية بالشر، بل لأنه  
كان يشعر بالنقص من ناحيتين: أنه كفيف وإنه من الموالى، فلا يزال من أجل  
هذا يعالج أن يعوضه إذ كان لا يملك أن يغير ما به، فما إلى رد بصره من  
سبيل، ولا ثم حيلة يعرفها هو أو سواه يخرج بها من طبقة الموالى سوى ما كان  
من تحريضة لهم على ترك الولاء، وفى طباع الإنسان أن يستر ضعفه، أو

يحاول أن يفيد عوضا عما حرمه أو فقده. ولما كان بشار قوى البدن موفور الصحة وكان إلى هذا على اللسان فقد أغراه ذلك بالتماس العوض الميسور وهو إفادة القوة الأدبية وإشعار نفسه والناس قدرته على البطش المعنوي الذي سدت عليه سبيله المادية.

وفيما بقى من شعره وأخباره الدليل على شدة شعوره بعماه، فقد كان كثير الذكر له فى شعره وكلامه، وقد تقدم بعضه، ومن ذلك أيضا قوله:

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة      والأذن تعشق قبل العين أحيانا  
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم      الأذن كالعين توفى القلب ما كان  
وقوله:

وكاعب قالت لأترابها      يا قوم ما أعجب هذا الضرير  
هل يعشق الانسان من لا يرى      فقلت، والدمع بعينى غزير  
إن تك عيني لا ترى وجهها      فإنها قد صورت فى الضمير  
وقوله:

بلغت عنها شكلا فأعجبني      والسمع يكفيك غيبة البصر  
وقوله:

عجبت فطمة من نعتى لها      هل يجيد النعت مكفوف البصر  
وقوله:

يزهدنى فى حب عبدة معشر      قلوبهم فيها مخالفة قلبى  
فقلت دعوا قلبى وما اختار ارتضى      فبالقلب لا بالعين ذو اللب

وما تبصر العينان في موضع الهدى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

وحكوا عنه أنه سأل صانعا أن يصنع له جاما فيه صور طير تـر فـجاءه بما طلب. فسأله بشار عمار فيه فقال الرجل "صور طير تطير" فقال بشار "كان ينبغي أن تتخذ فوق هذه الطير طائرا من الجوارح كأنه يريد صيدها فإنه كان أحسن" قال الرجل "لم أعلم" قال بشار "بلى قد علمت. ولكن علمت أنى أعمى لا أبصر شيئا".

وحتى في هذه الحكاية يريد بشار أن يكون في الصورة طائر من الجوارح يهـم أن ينقض على طير ضعاف.

وعسى أن تكون الحكاية مخترعة. فما ثم ما يعين على الجزم بالصحة أو الكذب، وخاصة لأن الرجل كثر التشنيع عليه والتسميع فيه والكرهية له. فإن تكن صحيحة فهي مما يشى بالتفات ذهنه إلى عماه - كما هو طبيعي - وإن تكن موضوعة فهي آية على إدراك واضعها لحالة بشار النفسية وتأثره بعماه. ومن مغالطة نفسه قوله "الحمد لله الذي ذهب ببصرى" فقيل له "ولم يا أبا معاذ" قال "لثلا أرى من أبغض" فإنه إذا كان قد أعفى من رؤية من يبغض، فقد حرم رؤية من يحب وما يحب.

وهجاه أبو هشام الباهلى بشعر قبيح لا يروى وغيره بعماه وقالوا "ولم يزل بشار مذ قال فيه هذين البيتين منكسرا".

ورفع غلام بشار إليه في حساب نفقته جلاء مرأة عشرة دراهم فصاح به بشار وقال "والله ما في الدنيا أعجب من جلا مرأة أعمى بعشرة دراهم. والله لو صدئت عين الشمس حتى يبقى العالم في ظلمة ما بلغت أجرة من يجاوها عشرة دراهم".

وهى صبيحة لا داعى لها، والتناسب بينها وبين الباعث عليها مفقود.  
وما كانت هذه مرآة أعمى، فما بالأعمى حاجة إليها، وإنما كانت مرآة جاريتها  
أو امرأته، ولكنه زج بنفسه وأدخلها فى الأمر لفرط إحساسه بعماء وسيطرة  
هذا الإحساس على وجدانه، وجرى بباله أن الغلام يكذب عليه ويخدعه لأنه  
ضيرير.

ومما يجرى مجرى الخبر الأسبق أن صديقا له قال له وهو يمازحه "إن  
الله لم يذهب بصر أحد إلا عوضه بشيء. فما عوضك..؟" قال "الطويل  
العريض" قال "وما هذا؟" قال "ألا أراك ولا أمثلهم من الثقلاء" ثم قال "يا  
هلال، أتطيعنى فى نصيحة أخصك بها؟" قال "نعم" قال "إنك كنت تسرق  
الحمير زمانا، ثم تبت وصرت رافضيا، فعد إلى سرقة الحمير، فهى والله خير  
لك من الرفض".

فهو كما ترى حساس جدا من هذه الناحية، وصبره قليل، وغضبه  
يستشرى.

وكان يحرص على أن يبدى للناس ذكاء قلبه، وإنه لم ينقص بالعمى  
شيئا. قالوا "مر ابن أخى بشار به ومعه قوم، وقال بشار لرجل معه "من  
هذا؟" قال "ابن أخيك" قال "أشهد أن أصحابه أنذال" قال "وكيف  
علمت؟" قال "ليست لهم نعال".

على أنه لا حاجة بنا إلى الشواهد من الشعر والنثر والأخبار. فما يسع  
إنسانا إلا أن يشعر بما رزق أو حرم. ولعل الشعور بالحرمان أقوى وأبلغ  
وأعظم أثرا فى النفس. والعين أكثر الجوارح غناء، وأوثقها اتصالا بالعقل  
والنفس، ألم يقل البحترى "ولكن رأيت العين بابا إلى القلب!". وهى أقوى

"حاسة اجتماعية" وأكثر المجازات في هذا الباب مستمدة من إحساساتها، والمرء عنها أفهم، وبها أقوى وأقدر، وعسير أن يغنى غيرها غناءها، كما يشق أن تكفى هي مكان سواها فإن لكل جارحه عملها، كما يقول ابن الرومي:

هل العين بعد السمع تكفى مكانه أو السمع بعد العين يهدى كما تهدي؟

وإن كان من المعقول إذا تعطلت جارحة أن تقوى الأخرى، أو كما يقول بشار نفسه "إن عدم النظر يقوى ذكاء القلب، ويقطع عنه الشغل بما ينظر إليه من الأشياء فيتوفر حسه، وتذكر قريحته (١)".

وبديهى أن بشارا لم يكن يدرك قيمة ما حرم إلا من الناحية العملية، بما يحصل في ذهنه من المقارنة بين حاجته واستغناء غيره، وعجزه واقتدارهم، وتقيدته وحريرتهم، أما قيمة النظر وجداره في إفادة الصور والمعانى فأمر نشك في أنه كان يدركه على حقيقته، أو يفهمه ويعرفه إلا توهما وتخيلًا، لأن معرفة هذا لا تكون إلا بالتجربة والمعاناة، وهو قد ولد مكفوفًا فليس في وسعه أن يقيس ما صار إليه من الحرمان إلى ما كان ينعم به من المزية، ولا أن ينتفع بما سبق له من القدرة على النظر فيستعين بذلك على إفادة المعانى والصور على نحو ما يفيدها البصير. على أنى أحسب أن هذا لا قيمة له وأن المهم أن تحصل المعانى والصور في الذهن، لا كيف تحصل، والفرق بين البصير والكفيف في هذا هو فرق في طريقة حصول الصور والمعانى، فيها ذاتها، وكل منهما يمثلها على النحو الذى تيسره الأداة التى له، والمهم كما قلت هو هذا التمثل لا طريقته ووسيلته.

---

(١) شبه بهذا قول القاسم بن محمد وقد قيل له "سلبت أحسن وجهك" فقال "صدقت،

غير أنى منعت النظر إلى ما يلهى وعوضت الفكرة فيما يجدى"

وقد سئل بشار كيف يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره وهو لم ير الدنيا قط ولا شيئاً فيها، فأجاب بما نقلنا من أن عدم النظر يقوى ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بالمرئيات، ولو شاء لقال أن اللغة ليست أكثر من أداة للتعبير عن المعانى والخواطر والخوالج، وإن المرء يتلقاها عن الجماعة التى هو فيها كما يتلقى النسيم الذى يستشقه، بلا تفكير أو عناء أو جهد من جانبه. محسوس. ويتلقى مع اللغة قواليتها وتشبيهاها ومجازتها واستعارتها وأسلوبها فى التشبيه، ونحوها فى المجاز، ووجهتها فى الاستعارة، ودلالات الألفاظ مفردة ومؤلفة. وترتسم فى ذهنه، بطريقة ما، الصور التى تستفاد من هذا التأليف، ولا يمنعه العمى أن يفيد الصور والمعانى المتداولة أو التى يمكن تمثيلها. والأبكم حكمه حكم الأعمى فى أنه لا يتلقى أداة التعبير عن المعانى كما يتلقاها الناطق السميع. وإنه ليتخذ أداة غير اللغة ولا صلة لها بها. ومع ذلك يتمثل المعانى ويؤديها بأداته الخاصة به، ويفهم الناس مراده، ويفهم عنهم، ولا يمنع ذلك أو يعطله اختلاف الوساطة. ومعظم الناس - إذا آثرنا القصد والحيلة ولم نقل الناس جميعاً - يأخذون اللغة بألفاظها وقواليتها، ويستخدمونها، ولا يجعلون بالهم إلى حقيقة معانيها الأصلية، فتسمع الواحد يقول أو يكتب أن السيف قد سبق العدل، وهو يفهم من هذا التعبير. ويفهم الناس عنه، أن الأمر قضى، وإنه لا سبيل إلى إصلاح ما وقع، ولا بقيت فائدة من الكلام. ولكنه لا يعرف - ولا يعرف السامعون أو القارئون فى الأغلب والأعم - أصل هذا المثل ومعناه الحقيقى حين جرى به لسان مرسله. وعسى أن لا يكون القائل والسامع، أو الكاتب والقارئ؛ وقد أبصرا فى حياتهما سيفاً. ولعلهما لم يعينا قط بأن يسألا عن العدل ما هو وما معناه. فهذا المثل حين يستعمل ليس أكثر من عبارة موروقة مقررة، أو قالب

مصبوب، يقرأه أو يسمعه المرء فيعرف أنه يدل على معنى معين، وقد تلقف هذا المعنى عن الناس، وتلقفه الناس جيلا عن جيل. وهذه هي الطريقة الطبيعية التي يتلقى بها الناس اللغة، وهل تظن أن الطفل الذي تعلم بأذنه محاكاة الأصوات التي يسمعها، وإدارة اللسان بها، يفهم معانيها كفهم الكبار لها؟ أليس كل ما يعرفه هو أن الصوت الذي تحدثه كلمة (كرة) حين ينطق بها الكبير، هو الصوت الذي ينبغى أن يحدثه هو إذا أراد أن يطلب الكرة، أو يسأل عنها أين اختفت؟ فالألفاظ، مسموعة أو مرسومة، ليست سوى رموز للأشياء والمعاني، والمرء يستفيد العلم بهذه الرموز والقدرة على استخدامها، على الأيام، وبالتقليد والمحاكاة، ويستطيع أن يستغنى عنها، إذا امتنعت الوسيلة إليها، برموز أخرى يتخذها هو كما يفعل الأخرس، والنتيجة واحدة، وإن اختلفت الرموز، وتباينت الوساطة في الفهم والإفهام.

ولكن بشارا فقد حاسة "اجتماعية" نفيسة لا يسعه إلا أن يشعر بفقدائها في عالم المبصرين، فلا مفر من أن يكون لفقدائها أثر في مزاجه وروحه والتفاتات ذهنه. فما مستوى أن تكون للمرء، وأن لا تكون له، هذه الجارحة. وأكبر الظن أن فقدتها أورثه بعض المرارة، وقوى استعداده للتمرد. وهذا الاستعداد يكون طبيعيا وليس مما يكتسب، ولكنه في بشار وجد عونا على الظهور السريع، من ضعة أهله وحقارة منبته - في عالم لا يزال الناس فيه مع الأسف طبقات متفاوتة الأقدار - ومن هذه الآفة التي متى بها "جنينا" ثم من دمامته الشديدة التي كان يعير بها، ثم من كونه فارسيا غلب وطنه على أمره، ثم استعلى قومه في دولة بني العباس وأخيرا من عصره الذي مال به إلى حرية الارتياح وإلى التمرد على الموروث من الآراء والعقائد، وإلى النزوع إلى الاجتهاد.

والمرء يقرأ هذا الخبر " دخل يزيد بن منصور على المهدي، وبشار بين يديه ينشده قصيدة امتدحه بها، فلما فرغ منها أقبل عليه يزيد بن منصور الحميري - وكانت فيه غفلة - فقال له " يا شيخ ما صناعتك؟ " قال " أئقب اللؤلؤ " فضحك المهدي ثم قال لبشار " اغرب ويحك . . أتتندر على خالي؟ " قال " وما أصنع؟ يرى شيخا أعمى ينشد الخليفة شعرا ويسأله عن صناعته . . "

يقرأ المرء هذا الخبر فيستظرفه ويتسمم، ولكنه يشعر بما فقى رد بشار من مرارة خفيفة، ومن أدراك لكونه بالعمى محدود الطاقة، وإنه لمحدود مصروف عن كثير مما يزاوله المبصرون. ولكنه رزق العوض الكافي، وليس الذي أرغم على تركه بالذي له قيمة تذكر. ولشد ما يتمنى المبصرون لو أنهم رزقوا ما رزق، وفيما لقي في حياته من الكرامة وفاز به من الوجاهة والتقديم دليل على أنه لم يخسر شيئاً كان يمكن أن يفيد أكثر منه بالبصر. ولكن المزاج لا يخضع للمنطق، ولا يجيء على مقتضى الموازنة بين الريح والخسارة. والطبيعة تجري مجراها بلا نظر إلى هذا وذاك. وقد كانت نفس بشار لا تخلو من مرارة ونقمة من أيام حدائته. وليس من العسير الاهتداء إلى بعض الأسباب التي أثرت في نفسه وقوت استعداده وقد أسلفنا الإشارة إليها، ولكن الخلق هو العلة الكبرى، والواقع على كل حال أن بشار لم يزل مذ قال الشعر في حدائته يركب الناس بالهجاء لسبب ولغير سبب، حتى لقد كان يتفكه به، ويعد إفحاشه فيه من دواعي السرور التي لا يعقل أن تسوء أحداً. وكان يضحك من أصدقائه حين يقول فيهم شراً فيعلنونه أو يعاتبونه، كالذي حكوه من أن حماراً نهق ذات يوم بقرب فخطر له بيت سو لا فقال بشار " في . . تسنيم " فقال له تسنيم " أيش ويحك . . ؟ "

فأنشده البيت الذى صار مقولا فيه . فقال له " عليك لعنة الله! فما عندك فرق بين صديقك وعدوك . أى شىء حملك على هذا؟ ألا قلت " فى .. حماد " الذى هجأك وفضحك وأعيأك؟ وليست قافيتك على الميم فأعذرك " قال " صدقت والله فى هذا كله . ولكنى ما زلت أقول " فى .. من .. فى .. من .. ولا يخطر ببالى أحد حتى مررت وسلمت فرزقته " فقال له تسنيم " إذا كان هذا جواب السلام عليك، فلا سلم الله عليك، ولا على حين سلمت عليك " وجعل بشار يضحك ويصفق بيديه، وتسنيم يشتمه ..

والحقيقة التى تدل عليها أخباره أنه اتخذ من الهجاء وسيلة إلى القوة والنفوذ والوجاهة والغنى؛ كما أراد فى حدائمه أن يحمل جريرا على مهاجته ليعظم شأنه . والهجاء فى الباقى من شعر بشار كثير . وهو إلى كثرتة شنيع يسف فيه ويفحش على نحو لم يكن مألوفا من قبل . وما ترك واحدا حتى هجاه . ولم يسلم من لسانه حتى الخلفاء وإن كان خوفه من البطش به قد حمله على كتمان بعضه أو توجيهه وجهة أخرى - كما رأيت فيما مر بك من قصيدته فى أبى جعفر المنصور التى غير فيها وبدل وحذف وصرفها إلى أبى مسلم ولكنه نسى أن يسقط منها هذا البيت:

وحارب إذا لم تعط إلا ظلامه شبا الحرب خير من قبول المظالم

فى تحريض واحد من الرعية على ملك أو سلطان، وهو الأصل فى القصيدة، ولعله أسقطه ونسى الرواة أن يذكروا ذلك . وما كانت ثورة عبد الله بن على، على أبى مسلم بل على المنصور، ولا كان أبو مسلم هو الرأس وإنما كان المنصور هو الرأس فمعانى الهجاء كلها منصرفة إلى الخليفة .

وكان تسوره على الناس، كبارهم وصغارهم، وأعدائه منهم والأصدقاء، والمسحسنيين إليه والمسيئين، سببا فى تبغيضه إليهم فخافوه وكرهوه وشتموا به لما قتل ضربا بالسياط.

وعلى فرط اجترائه على الناس بالهجاء، وتناولهم بالسبب القبيح، والذم الوجيع، كان فى أبى معاذ جبن وذلة.

قال أحد رواة شعره - فقد كانوا كثيرا - "جئت بشارا ذات يوم فحدثنى قال: ما شعرت منذ أيام إلا بقارع يقرع بابى مع الصبح فقلت: يا جارية انظرى من هذا. فرجعت إلى وقالت هذا مالك بن دينار<sup>(١)</sup> فقلت: ما هو من أشكالى ولا أضرابى. ثم قلت: ائذنى له، فدخل فقال، يا أبا معاذ أتشتم أعراض الناس وتشيب بنسائهم؟، فلم يكن عندى إلا أن دفعت عن نفسى وقلت لا أعود.. فخرج عنى".

وحكوا عنه أنه هجا روح بن حاتم<sup>(٢)</sup> فبلغه ذلك فقفذه وتهدهه. فقال

بشار فيه:

تهددنى أبو خلف      وعن أوتاره ناما  
بسيف لأبى صفرة      لا يقطع ابهاما  
كأن الورس يعلوه      إذا ما صدره قاما

(١) مالك بن دينار البصرى من رواة الحديث كان ورعا يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالأجرة.

(٢) روح بن حاتم بن قضية بن الملهب الأزدي أمير من الأجواد ولاء المهدي السند ثم البصرة ثم الكوفة وولاه الرشيد على القيروان.

فبلغ ذلك روحا فقال: كل مالى صدقة إن وقعت عيني عليه لأضربنه ضربة بالسيف ولو أنه بين يدي الخليفة. فبلغ ذلك بشارا فقام من فوره حتى دخل على المهدي فقال له: ما جاء بك فى هذا الوقت.؟ فأخبره بقصة روح وعاذ به منه. فقال المهدي: يا نصير! وجه إلى روح من يحضره الساعة. فأرسل إليه فى الهاجرة وكان ينزل فى المحرم<sup>(١)</sup> فظن هو وأهله أنه دعى لولاية، قال: يا روح إنى بعثت إليك فى كل حاجة. فقال له أنا عبدك يا أمير المؤمنين فقل ما شئت سوى بشار فأنى حلفت فى أمره بيمين غموس. قال: قد علمت، وإياه أردت. قال فاحتمل ليمينى يا أمير المؤمنين. فأحضر القضاة والفقهاء، فاتفقوا على أن يضربه ضربة على جسمه بعرض السيف. وكان بشار وراء الخيش (مراوح من الكتان) فأخرج وأقعد. واستل روح سيفه فضربه ضربة بعرضة. فقال أوه، باسم الله. فضحك المهدي وقال له: ويلك. . هذا وإنما ضربك بعرضه فكيف لو ضربك بحدته. "

وقرع بابه يوما عتيفا فقال "ويحك يا غلام! انظر من يدق الباب دق الشرط!"

ولسنا نرى أن هذا يزرى به، فقد كان على كل تجبره وقعوده للسباب مسكينا. ولكن المرء لا يسعه إلا أن يتسم حين يرى اشفاقا فى مجلس الخليفة من أن يغلط روح - أو يتعمد الغلط - فيضربه بجذ السيف. وكان على استهتاكه لا يخلو من حذر مرجعه إلى الخوف لا إلى الاحتشام.

كان لبشار نديم ما جن مثله فقال له يوما "يا أبا معاذ. . لقد نسبنا

---

(١) محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلى.

الناس إلى الزندفة فهل لك أن تحج بنا حجة تنفى عنا ذلك.؟" قال "نعم ما رأيت" فاشترى يا بعييرا فركبا - فلما مرا بزرارة (محلة بالكوفة) قال له "ويحك يا أبا معاذ! ثلاثمائة فرسخ متى تقطعها؟؟ مل بنا إلى زرارة نتنعم فيها، فإذا قفل الحجيج عارضناهم بالقادسية (قرب الكوفة) وجززنا رؤوسنا فلم يشك الناس أنا جئنا من الحج" فقال له بشار "نعم ما رأيت لولا خبث لسانك! وإنى أخاف أن تفضحنا" قال "لا تخف" فمالا إلى زرارة فما زالوا يشربان الخمر ويفسقان، فلما نزل الحاج بالقادسية راجعين، أخذوا بعييرا ومحملا وجزا رؤوسهما وأقبلا وتلقاهما الناس يهتئونهما"

وقد صدق ظن بشار، وكان ما خاف أن يكون، فقد فضحه صاحبه بهذه الأبيات:

ألم ترني وبشارا حججنا      وكان الحج من خير التجارة  
خرجنا طالبي سفر بعيد      فمال بنا الطريق إلى زواره  
وآب الناس قد حجوا وبروا      وأبنا موقرين من الخساره!

وكان دقيق الإحساس بما يعرضه للسخرية والهزؤ. قالوا إنه كان يعطى أبا الشمشقمق في كل سنة مائتى درهم، فأتاه أبو الشمقمق فى بعض تلك السنين فقال له "هلم الجزية يا أبا معاذ" فقال "ويحك. أجزية هي؟؟" قال "هو ما تسمع". فقال بشار يمازحه "أنت أفصح منى؟" قال "لا" قال "فأعلم منى بمثالب الناس؟" قال "لا" قال "فأشعر منى؟" قال "لا" قال "فلم أعطيك؟" قال "لئلا أهجوك" قال "إن هجوتنى هجوتك" فقال أبو الشمشقمق "هكذا هو؟" قال "نعم، فقل ما بذلك" فقال أبو الشمقمق:

إني إذا ما شاعر هجانيه      ولج في القول له لسانيه  
..... علانيه      بشار يا بشار يا ابن....

وأراد أن يقول "يا بن الز... " فوثب بشار فوثب بشار فاه، وقال  
"أراد والله أن يشتمني!" ثم دفع إليه مائتي درهم وقال له "لا يسمعن هذا  
منك الصبيان، يا أبا الشمقمق"

في مرة أخرى علم أبو الشمقمق الخبيث أن بعضهم وصل بشارا بعشرة  
آلاف درهم، فوافاه وقال له "يا أبا معاذ. إني مررت بصبيان فهمعتهم.  
ينشدون:

هللينه! هللينه      طعن قشاة لتينيه  
إن بشار بن برد      تيس أعمى في سفينيه

فأخرج إليه بشار مائتي درهم وقال "خذ هذه ولا تكن رواية الصبيان يا  
أبا الشمقمق!"

وما كان الذي خافه بشار الشتم، بل ما هو شر منه: أن يجتمع عليه  
الصبيان في الطريق ويزفوه بهذه الأبيات السهلة الجري على اللسان. وله  
العدر. وحكاية مشهورة مع البصري الذي صنع له جاما فيه صور طير تطير  
فعابه بشار وتهدهد بالهجاء. فقال له الرجل "لا تفعل فانك تندم" فسأله بشار  
"أي شيء تستطيع أن تصنع بي إذا هجوتك؟" قال أصورك على باب دارى  
بصورتك هذه وأجعل من خلفك قردا حتى يراك الصادر والوارد" فقال بشار  
"اللهم اخزه! أنا أمازحه وهو بأبى إلا الجد".

وهكذا تعلم بشار أن اللسان ليس بالأداة الوحيدة للثلب والتشهير، وإنه  
رب صورة كانت أقتل من مائة قصيدة سيارة.

وسئل بشار "أى متاع الدنيا أتر عندك؟" قال "طعام مز، وشراب مر،  
وينت عشرين بكر"  
وقال فى شعره:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وفى كلمته هذه، وفى شعره، تتمثل سيرته. فما كان الشعر عنده إلا وسيلة للجاء، وبسطه العيش، والوقوع فى الرغد ونعيم الحياة، والاستمتاع بما يفيد شعره من التعظيم إذ لم يكن له قديم يرجع إليه. وكان الناس لا ينفكون يعيرونه بأنه من الوالى وأن أصله غير معروف وفرعه غير زاك. فكان لا يقدر أن يقول لهم فى الرد عليهم إنه أكرم منهم، أو مثلهم كرم أصول، ويكتفى بأن يزعم أنه أكرم أصلا من الذهب وأن فرعه أزكى من عمل الأبرار.

وكان عمه أن يغتنم كل ما يسعه اغتنامه من فرص العيش. شهد مرة مجلسا فقال لمن فيه "لا تصيروا مجلسنا هذا شعرا كله، ولا حديثا كله، ولا غناء كله، فإن العيش فرص، ولكن غنوا وتحدثوا وتاشدوا وتعالوا تتأهب العيش تناهيا"

وكان هذا ما يصنع. وكان له فى داره مجلسان: مجلس يجلس فيه بالغداة يسميه "التبردان" مجلس يجلس فيه بالعشى اسمه "الرقيق" وكان يعنى بطعامه وشرابه، وكان النسوة يدخلن إليه فى مجلسه ليسمعن شعره

ويحدثه، ويسأله بعضهم أحيانا أن يقول لهن شعرا ينحن فيه، وكان ربما عشق امرأة منهن من كلامها فيأمر غلامه أن يتبعها، ويعرفها محبته لها، أو يبعث إليها معه برقعة فيها شعر يقوله فيها - وكان بعضهم يدعونه إلى بيوتهن فيذهب وحده أو مع صديق له، وكان يحضر مجلسه أيضا من الرجال رواة شعره، وتلاميذه، والمتأدبون عليه، والمعجبون به، وغيرهم من أصحاب الكلام ومن إليهم من محبي الجدل والمنازعة، فيبته أبدا معمور كما قال

ومن كان يحضر مجلسه من المعروفين المشهورين الأصمعي، وخلف بن أبي عمر العلاء، وخلف الأحمر. ويقول الأصمعي إنه كان يشهدهما يأتيان إليه ويسلمان عليه بغاية التعظيم ويسألانه عما أحدث فيخبرهما وينشدهما فيكتبان عنه متواضعين له ثم ينصرفان عنه.

ومن تلاميذه ورواته سلم الخاسر. وقد غضب عليه بشار مرة فاستشفع بجماعة من إخوانه فجاءوا في أمره فقال لهم "كل حاجة لكم مقضية إلا سلما" قالوا ما جئنا إلا في سلم. ولا بد من أن ترضى عنه لنا. فقال "أين هو الخبيث؟" قالوا "ها هو ذا!" فقام إليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه وقال "يا أبا معاذ! خريجك وأديك" فقال يا سلم. من الذي يقول:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهيج

قال "أنت يا أبا معاذ. جعلني الله فداءك." قال "فمن الذي يقول:

من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

قال "خريجك يقول ذلك (يعنى نفسه) قال "افتأخذ معانى التى عينت

بها وتعبت فى استنباطها، فتكسوها ألفاظا أخف من ألفاظى حتى يروى ما تقول ويذهب شعرى؟؟ لا أرضى عنك أبدا!"

فما زالوا يتضرعون إليه ويشفع له القوم حتى رضى عنه .

وقد حرصنا على سوق الخبر لندل به على ما كان لبشار فى زمانه من محل ومع تعظيم جلسائه له كان بعضهم لا يتحرج أن يعيره بأنه مولى . ومن ذلك أن خلفا الأحمر قبله مرة بين عينيه إعجابا باقتداره وإكبارا لتوفيقه وحسن تصرفه فقال له خلف بن أبى عمرو يمارحه - وما أثقله من مزاح - " لو كان علائمة ولدك يا أبا معاذ، لفعلت كما فعل، ولكنك مولى " فمد بشار يده فضرب بها فخذ خلف هذا وقال :

ارفق بعمرؤ إذا حركت نسبته فإنه عربى من قواير

وكان أبو عمرو يغمز فى نسبه . فالحق أن بشارا كان له بعض العذر . . ومر به عباد بن عباد وهو شريف ثقة من العقلاء ومن حفاظ الحديث . فسلم عليه فقال بشار "وعليك السلام، أعباد؟" قال "نعم" قال "نى لحسن الرأى فيك" قال "ما أحوجنى إلى ذلك منك يا أبا معاذ"

ولم يكن ضنينا بالثناء والمعونة . وقد سبق من أخباره مع أبى الشمقمق ما فيه الكفاية . ولكن له معه خبر آخر يدل على سعة نفسه - فقد جاءه أبو الشمقمق مرة يشكو إليه الضيقة فقال له بشار "والله ما عندى شىء يغنيك . ولكن قم معى إلى عقبه بن سلم (وكان جوادا) فقام معه فذكر له أبا الشمقمق وقال "هو شاعر وله شكر وثناء" فأمر له بخمسمائة درهم، فقال بشار .

يا واحد العرب الذى أمسى وليس له نظير

لو كان مثلك آخر ما كان فى الدنيا فقير

فأمر لبشار بألفى دينار . فقال له أبا الشمقمق "فنعتنا ونفعاك يا أبا

معاذ" فجعل بشار يضحك. وقد عرفت مما أسلفنا ذكره كيف كان بره بأخويه، وإن كان لا يكتم ضجره منهما ولا يترفع عن المفاخرة بعطفه عليهما والصبر على أذاهما. وقد يلحق بهذا بيتاه الفارغان المشهوران في ريادة جاريته التي كانت تجمع له البيض من دجاجاتهما وتغنيه عن أكله من السوق.

ريادة ربة البسيت      تصب الخل فى الزيت  
لها عشر دجاجات      وديك حسن الصوت

وقد سرها البيتان فلم تزل تهتف بهما وتدنن.

وكان عظيم الاعتزاز بنفسه، يقول فى شعره " وهل على أمير؟ "

نارى محرقة وبيتى واسع      للمعتفين، ومجلسى معمور

ومعظم هذا حق. وجاءه أبو النضير الشاعر فأنشده قصيدة له فأنى عليه بشار، فقال أبو النضير، كأنما أراد أن يستوثق من صدق السريرة فى هذا الثناء " لعلك حابيتنى يا أبا معاذ " فقال بشار " أنت - أبقاك الله - أهون على من ذلك "

وكان شعراء آخرون يقدمون البصرة وينشدون بشارا شعرهم ويستنصحوه فيشير عليهم ويتبأ لهم. فإذا تعجب أحدهم من حدسه قال مازحا " أما علمت أنه لم يبق أحد أعلم بالغيب من عمك؟ " وكان الأخفش وسيبويه يخافان لسانه ويتوقيانه ويجزعان أن يقع فيهما ولا يزالان يحتجان بشعره فى كتبهما استكفافا لشره. وبلغ من سيرورة شعره - غزله على الخصوص - أن استهتر به نساء البصرة - حرائرها وغيرهن - وشبانها حتى ضج الناس لذلك، وقال مالك ابن دينار أنه ما شىء أدعى لأهل هذه المدينة

إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى . وقال واصل بن عطاء - بعد أن وقعت  
بينه وبين بشار النبوة - أن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا  
الأعمى الملحد.

فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدي نهاء عن ذكر  
النساء وقول التشيب .

\*\*\*

وقد علمت أن بشارا نشأ بين الشيوخ من بنى عقيل، وفي حجور ثمانين منهم على قوله، ثم أخرج إلى البادية. فنشأته من هذه الناحية عربية خالصة. وهذا هو السبب في سلامة عبارته، وجزالة أسلوبه، وحسن ديباجته، وجودة للكلام. وقد اتصل بأصحاب الكلام المعروفين في زمانه حتى قيل أنه صار له - بعد فترة من التحير - رأى خاص. وقال الجاحظ أنه كان يدين بالرجعة إلى الدنيا، وإنه كان يكفر جميع الأمة. وما تظن إلا أنه عدل عن هذا التكفير بالجملة فقد هجا واصل بن عطاء وعابه به فقال فيه:

عق الزرافة ما بالى وبالكم تكفرون رجالا كفر وارجالا؟

ولم تكن الفرق الإسلامية قد ظهرت كلها في زمانه، ولكن بعضها كان قد ظهر قبل عهده، وبعضها في زمانه، فكا هناك الخوارج، والشيعة، والمعتزلة، والزيدية أو الروافض على العموم، والمحمدية (التي تقول بانتظار محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وتزعم أنه لم يمت وأنه حي في جبل في ناحية من نجد وأنه يقيم هناك إلى أن يؤذن له في الخرج) والباقرية ويشهون المحمدية في أنهم لا يصدقون أن محمد بن علي بن الحسين الباقر قد مات، إلى آخر ذلك. وليس هذا كتابا في الفرق. وإنما أردنا أن نقول إن بعضها كان قد ظهر، وإن دعواتها كانت تنشر، ونشوه هذه الفرق مظهر للاجترأ على الارتياء المخالف للموروث والقائم المقرر من العقائد والنظر، كما أنه وليد نزعات وخصائص في الرقعة الشرقية من الفتوح العربية. وأحر بمن يعتاد الدخول مع أصحاب الكلام أن ينزع منزع التحرر.

ويكاد يكون محققا أن اتصال بشار بأصحاب الكلام كان من الأسباب التي قوت روح التمرد التي طبع عليها والتي ظهرت في حدائته. ولا عجب أن ينتهي به الأمر إلى اتهامه بالزندقة، فهو أولا فارسى الأصل، وقد أورثه هذا وحده تمردا على العرب وما جاءوا به. ثم إنه متمرد بطبعه، وقد ولد ونشأ في بلاد مضطربة به ولا تستقر على حال أو رأى. وعاش في زمن انقلاب أفضى إلى انتصار العنصر الذى كان مغلوبا أى العنصر الفارسى، وصار اعتماد الدولة عليه لأنها قامت بفضلها، فلهذا العنصر حظوة فيها ووجاهة، وله - بفضل ما وفق إليه - زهر واجترأ. وهناك تلك الحرية فى البحث والارتياح، وكان بشار يختلف إلى مسجد البصرة ويشترك مع المتكلمين وأصحاب المقالات الدينية والسياسية فإذا اضطرب أولا وتحمير ثم انتهى إلى ما يشبه أن يكون زندقة فلا عجب فإن العوامل المفضية به إلى هذا أقوى من تلك التي كانت خليفة أن تمسكه وتصده، أو تفيء به إلى الاعتدال.

وكان بشار فى أول الأمر مفتونا بواصل بن عطاء زعيم مذهب المعتزلة ثم اختلف معه وانصرف عنه وهجاه. فكان من قوله فيه:

مالي أشايح غرالا، له عنق      كنتنق الدو، إن ولى وان مثلا  
 عنق الزرافة ما بالى وبالكمو      تكفرون رجالا كفروا رجلا

يقول لواصل وأصحابه لماذا تكفرون الخوارج من أجل أنهم كفروا عليا بعد التحكيم؟ وهذا بعد أن كان هو نفسه يكفر الأمة كلها بعد موت النبي ﷺ، ولا يستثنى عليا.

وبلغ من فساد الحال بينهما أن واصلا تحدث بأنه هم يدس إليه من يقتله لولا أن دينه وسجاياه يأيان عليه الغيلة.

وقد قلت أنه رمى بالزندقة وأنه انتهى إلى ما يشبه أن يكونها، ولم أقل أنه كان زنديقا. ذلك أن الأمر مرجعه إلى السرائر وعلمها عند الله. وهى تخفى على أصحابها فكيف بغيرهم؟ وكل ما روى عنه لا يدل على أكثر من أنه كان مستخفا لا يبالي ما يقول أو يفعل، وأنه لم يكن من أهل التقى والورع. وكثير من الناس مثله، ولكنهم لم يرزقوا شهرته، فالعيون ليست عليهم، والألسنة لا تخوض فيهم ولا تلهج بهم. والشهوة فضاحة. ومن شأنها تجسيم الصغير والتهويل بالتافه. ولم يكتسبوا ما اكتسب من العداوة بطول لسانه وسلطته فليس لأحد مصلحة فى الوقوع فيهم والتشنيع عليهم واتهامهم بالحقى أو بالباطل.

وقد حكوا أن بعضهم قال "كنت أكلم بشارا وأورد عليه سوء مذهبه بيمله إلى الإلحاد فكان يقول "لا أعرف إلا ما عانيت أو عانيت مثله" وكان الكلام يطول بيننا فقال لى "ما أظن الأمر يا أبا خالد إلا كما تقول. وإن الذى نحن فيه خذلان. ولذلك أقول:

طبعت على ما فى مخير      هواى. ولو خيرت كنت المهذبا  
أريد فلا أعطى، وأعطى ولم أرد      وقصر علمى أن أنال المغيبنا  
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر      وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

وليس هذا من الكفر والإلحاد فى شىء، وإنما يصف عجزه وقصوره وأقصى ما فيه أنه يقول بالجبرية وينفى الاختيار. ونسب إليه أنه طرب لصوت غنى به فى شعر له فقال "هذا والله أحسن من فلج يوم القيامة!" وقال عن غناء لجارية فى شعر آخر له "هذا والله أحسن من سورة الحشر!" وهى كما فلتات لسان رجل مستهتك أخرج الطرب عن طوره ولعله كان ثملا.

وقالوا أنه كان يقدم النار على الطين ويذكر ذلك في شعره فيقول:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

ويفضل إبليس على آدم فيقول:

إبليس أكرم من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار

النار عنصـره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

وكله كلام لا محصول وراءه. وقد يكون الغرض منه الزرابة بالناس الذين يقال إنه كان يتبرم بهم، ويضجر منهم، ولكنه على الحالين لا يعد مذهبا أو رأيا يستحق أن يسمى رأيا. وإنه لأحق بأن يسمى كلاما فارغا ومما عدوه من الاستخفاف الواشى برقة الدين ما حكوه من أنه سمع قاصا بالبصرة يقول "من صام رجبا وشعبان ورمضان بنى الله له قصرا فى الجنة صحنه ألف فرسخ فى مثلها، وعلوه ألف فرسخ، وكل باب من أبواب بيوته ومقاصره عشرة فراسخ فى مثلها" فالتفت بشار إلى فائده فقال "بئست والله الدار هذه فى كانون الثنائى. . . " أى فى يناير - قلب الشتاء. وما نحسب أحدا يرى فى هذا أكثر من نكتة يراد بها توكيد سخافة القاص ولو سمعت أنا من يزعم ذلك ما كنت قائلا إلا ما قال بشار أو نحوه.

وروى بعضهم أن بشارا كان فى دار المهدي، والناس ينتظرون الاذن فقال بعض موالى الخليفة لمن حضر "ما عندكم فى قول الله عز وجل "وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا، ومن الشجر" فقال له بشار "النحل التى يعرفها الناس" قال "هيهات يا أبا معاذ! معاذ! النحل بنو هاشم" العلم. فقال له بشار "أرأنى الله طعامك وشرابك وشفاءك فيما

يخرج من بطون بنى هاشم! فقد أوسعتنا غثاثة" فغضب وشم بشارا. وبلغ المهدي الخبر فدعا بهما فسألهما عن القصة فحدثه بشار فضحك حتى أمسك على بطنه ثم قال للرجل "أجل. فجعل الله طعامك وشرابك مما يخرج من بطون بنى هاشم، فإنك بارد غث".

وهو خير يلحق بسابقه. فما فيه أكثر من السخر من التكلف الغث وأهم من ذلك أنه كان لا يرى يصلى، ولا يستر تقصيره، فكان إذا حضرت الصلاة يقوم غيره ويقعد هو. فكلمه بعضهم فى ذلك فقال "أن الذى يقبلها تفاريق جملة".

وهى كلمة تجرى مجرى كلامه الآخر، من قلة المبالاة بما يقول أو يفعل وفيها من القصد إلى إظهار البراعة فى الجدل والحوار أكثر مما فيها من القصد إلى الجدل. وعلى أنه لم يقل إنه لا يصلى.

وقالوا إن الزندقة هى التى أوردته موارد التلف، وكانت السبب المبشار فى قتله.

وروا أن المهدي انحدر إلى البصرة، فلما بلغ ما بين واسط وبينها سمع أذانا فى وقت ضحى النهار. فقال "انظروا ما هذا الأذان" فإذا بشار يؤذن وهو سكران. فقال له المهدي "يا زنديق.. عجبت أن يكون هذا غيرك! أتلهو بالأذان فى غير وقت الصلاة، وأنت سكران؟ ثم أمر بضربه بالسوط بين يديه سبعين صوتا أتلفه فيها.

وبقية الخبر أنه كان إذا أوجعه السوط يقول "حسن" وهى كلمة يقولها العرب للشىء إذا أوجع. فقال بعضهم "أنظر إلى زندقته يا أمير المؤمنين؟ يقول حسن، ولا يقول باسم الله." فقال - أى بشار - أطعام هو فأسمى الله

عليه؟" فقال له آخر " أفلا قلت الحمد لله؟ قال " أو نعمة هي حتى أحمد الله عليها؟" فلما ضربه سبعين صوتا بأن الموت فيه، فألقى في سفينة حتى مات ثم رمى به في البطيحة فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة فدفن بها.

وقد أطللنا الاقتباس عامدين لأننا نرى في الخبر اضطرابا واضحا. وقبل أن نعرض لذلك نقول إن المهدي كان يعرف أن بشارا متهم بالزندقة، ومع ذلك مان يقربه ويستمع إلى مدائحه ويجيزه عليها، ويأنس به ويستظرفه، فلو أن الزندقة كانت علة الضرب لما صبر عليه أو أمهله حتى نيف على السبعين. ولو كان كل ما في الأمر أنه سمعه يؤذن وهو سكران، لما كان خليقا أن يزيد على الحد، ولعله كان قمينا أن يعفو عنه. ولو أن المهدي كان قائلا أحدا من الزنادقة لزندقته لقتل مطيع بن إياس الذي وصفه المهدي نفسه بأنه خبيث الدين فاسقا واحتال حتى أنجاه.

وإنما كان ما كان من المهدي لأن بشارا هجاء أشنع الهجاء وهجا معه وزيره القوي يعقوب بن داود فقال فيهما:

بنى أمية هبوا طال نومكم      إن الخليفة يعقوب بن داود  
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا      خليفة الله بين الزرق والعود  
وهجا أيضا صالح بن داود - وإلى البصرة - أخا الوزير يعقوب بن

داود - فقال:

هم حملوا فوق المناير صالحا      أخاك، فضجت من أخيك المناير

وله في هجاء المهدي ما هو أقبح وأفحش. وقد سعى به الوشاة إلى يعقوب بن داود فسعى به هذا إلى المهدي فقال له " يا أمير المؤمنين إن هذا

الأعمى الملحد الزنديق قد هجأك " قال "بأى شيء؟" قال "بما لا ينطق به لسانى، ولا يتوهمه فكرى" قال له "بحياتى إلا ما أنشدتنى" فقال "والله لو خيرتنى بين أنشادى إياه وبين ضرب عنقى لاخترت ضرب عنقى" فحلف عليه المهدي بالايمان التى لافسحة فيها أن يخبره. فقال "أما لفظا فلا، ولكنى أكتب ذلك." فكتبه ودفعه إليه فكاد يتشق غيظا. والأرجح أن عبارة هذا الخبر موضوعة، فإنها غير معزوة إلى أحد - ولم نقرأ أن هذا الحديث سمعه ثالث، ولكنه هو الذى يعقل أن يقول مثله وزير مغيظ محقق، فى موطن وشاية وسعاية وتحريض.

على أن هناك رواية أخرى تقول إن يعقوب بن داود بعد أن سعى بىشار إلى المهدي، خاف أن يقدم بشار على الخليفة فيمدحه فيعفو عنه، فوجه إليه من استقبله فضربه بالسياط حتى قتله ثم ألقاه فى البطحة.

فإذا كان الوزير يخشى أن يعفو المهدي عن بشار بعد أن هجاه هجاء قبيحا، وسبه وسب عماته، وزوجته الخيزران أم ولديه موسى وهارون الرشيد، أفلا يعفو عن سكره ولهوه؟

وواضح من الروایتين أن هناك اختلافا فىمن أمر بضربه حتى مات. أهو المهدي نفسه أم وزيرة؟ ولكن المحقق أن نقمة الوزير عليه هى التى أوردته هذا المورد. وقد صار الوزير فيما بعد إلى شر من هذا المصير، فحبسه المهدي فى قاع بئر عدة أعوام، حتى عمى وهدى، ولم يخرجه إلا الرشيد، ويشبه هذا أن يكون انتقاما إليها.

وقد قلنا فى الخبر الأول - الذى يروى فيه أن المهدي هو الذى أمر بضرب بشار بين يديه - اضطرابا. ونحسب أن هذا جلى، فإنه إذا كانت

الزندفة حين يقولها بشار؟ ثم إن عبارة "باسم الله" ليست مما يقوله من يضرب بالسياط حتى يستغرب من بشار وينكر عليه تركها وإيثار غيرها. وليس هذا الوقت مزاح حتى يرد بشار هذا الرد للضحك والسياط تلهب جلده، وتتوالى عليه حتى تزهب روحه، وصحيح أنه كان قوى البدن لا يشتكى شيئا، ولكنه كان قد جاوز السبعين على ما يقال فهو شيخ هرم لا يحتمل ما حتمله الشاب القوى. وإذا قيل إنه كان سكران فلا يبعد أن يمزح فى أول الضرب قلنا أن ما رأى من غضب المهدي وأمره أن يضرب بين يديه ضرب التلغ كان خليقا أن يذهب عنه السكره جدا.

وجملة القول أن تهمة الزندفة إنما جاءت ولصقت به فيما أرى من طول لسانه، على الأكثر، دون فعله، فما أكثر من لا يصلون ولا يصومون - أو لا يصومون إلا صوما رقيقا كبشار - ويشربون الخمر وينهزون مع الغواة بدلائهم، ولا يخطر لأحد مع ذلك أن يرميهم بالمروق من الدين. ولكن بشارا كان شاعرا هجاءا يثلب الصديق كئلبه للعدو، ولا يزال يقع فى كل ذى قدر وجاه ومكانة، من العلماء والولاة والسراة، ولا يتقى أن يشتم الوزراء والخليفة نفسه أوجع الشتم، ولا ينفك يتوعد بالدم كل من أبطأ أو تلكأ عليه فى العطاء، حتى لقد كان يعجل بالهجاء من أجل قوصرة (وعاء) تمر أو أضحية يبعث بها إليه بعضهم كل سنة - كل سنة لا كل شهر ولا كل أسبوع - فكان الناس يفتدون أنفسهم منه بما يعطونه مخافة أن يقعوا فى لسانه. بل قد هجا جارا له صديقا بعث إليه يطلب ثيابا بنسيئة فلم يصادفها عنده. فلما رد الجار هذه "التحية" بشر منها، غضب وندم على تعرضه لرجل لا نباهة، وجعل ينطح الحائط برأسه ويقول "لا تعرضت لهجاء سفله مثل هذا أبدا" لأنه كان

اتخذ الهجاء تجارة، وجعل منه وسيلة للابتزاز مخافة التشهير Blackmail فكرهه الناس جميعا سرايهم وعامتهم، وهولوا بكل ما رأوا وسمعوا وبلغهم عنه .

حتى غزله أثار عليه سخط العامة والخاصة، لأنه توخى فيه ما يدور على معانى الحس استهتر به النساء والشبان، ولامه فى ذلك أهل الورع وعامة الناس أيضا، ولما كثر ذلك وارتفعت أخباره إلى المهدي نهاه عن ذكر النساء . وكان أيضا يثير الموالى ويحرضهم على ترك الولاء والرجوع إلى أصولهم . فكان هذا مما زاد السخط عليه والكره له .

فلما مات وأخرجت جنازته لم يتبعها أحد إلا أمة سوداء سنديية عجماء لا تفصح جعلت تصيح خلف جنازته " واسيداه . . واسيداه . . " وتباشر عامة أهل البصرة وهنا بعضهم بعضا، وحمدوا الله، وتصدقوا لما كانوا منوا به من لسانه . وقال فيه أبو هشام الباهلى :

يا بؤس ميت لم ييكه أحد  
لا أم أولاده بكتــــــــه، ولم  
ولا ابن أخت بكى ولا اخ  
بل زعموا أن أهله،  
أجل، ولم يفتقده مفتقد  
ييك عليه لفرقة، ولد  
ولا حميم رقت له كبد  
لما أتاهم نعيه، سجدوا  
وقال أيضا:

قد تبع الأعمى قفا مجرد  
قالت بقاع الأرض لا مرحبا  
تجاورا بعد تنائيهما  
فأصبحا جارين فى دار  
بروح حماد وبشار  
ما أبغض الجار إلى الجار

صارا جميعا فى يدى مالك فى النار. والكفسار فى النار  
وقد أهملنا خبرا قيل فيه إنه لما مات بشار بعث المهدي إلى منزله من  
يفتشه فوجد فيه طومار (أى صحيفة) فيه "بسم الله الرحمن الرحيم. إني  
أردا هجاء آل سليمان بن على لبخلهم، فذكرت قرابتهم من رسول الله ﷺ  
فأمسكت على لبخلهم، فذكرت قرابتهم من رسول الله ﷺ فأمسكت عنهم  
إجلالا له ﷺ"

قالوا فلما قرأه المهدي بكى وندم على قتله وقال "لا جزى الله يعقوب  
بن داود خيرا!. فإنه لما هجاه لفق عندى شهودا على أنه زنديق فقتلته! ثم  
ندمت حين لا يغنى الندم".

أهملنا هذا الخبر لأنه لو كان بشار يمسك عن هجاء أحد من أجل قرابته  
لرسول الله، لأمسك عن هجاء المهدي نفسه، ثم أنا لم نقرأ شيئا يستفاد منه  
أنه كان يتخذ أحداً كاتباً، وإنما كان هناك من يروون شعره، وهذه هى الجملة  
الوحيدة التى قيل إنها وجدت فى صحيفة عنده بعد موته، فلو كان يعنى،  
على خلاف المؤلف، بتدوين "مذكرات" أو املائها لعشر الناس على غيرها.  
فما يعقل أن يعيش نيقاً وسبعين سنة، أو تسعين على قول آخر ولا يثبت فى  
مذكراته إلا أنه هم بهجاء رجل فعدل.

وليس معنى هذا أنه كان مسلماً تقياً ورعاً، وأنه يصلح أن يكون قدوة  
لغيره، ومثالا يحتذيه سواه، فما كان كذلك. وأحسب أن أقصى ما يقال فيه  
أنه ولد مسلماً، فهو على الإسلام، ولكنه شب متمرداً، فهو لا يزال يخرج  
على المؤلف ما استطاع أن يفعل، وقد آثر أن يكون مرهوب الجانب مخشى  
اللسان، وأن ينشد القوة من هذه السبيل التى لم يدع له العمى سواها،

فمضى سادراً لا يرعوى ولا يتحرج . ولعله لو استطاع أن يكفر علانية وهو آمن لفعل . ولكنه لم يفعل . ولو أنه كان كافر لما كان ذلك منه عن اقتناع بأن ديناً آخر خير من الإسلام ، بل لكان مظهراً لتمرده على ما هو قائم ، على أن هذه أمور لا يقال فيها بالحدس ولا بالترجيح ، وما دام الرجل لم يصرح بكفره فالأحجى أن ندع سريرته لعلام الغيوب .

\*\*\*

ولا مرء أن بشارا كان ضيق الصدر. قال عنه الأصمعي إنه كان " من أشد الناس تبرما بالناس ". وكان هو يقول " الحمد لله الذى ذهب ببصرى " فقيل له مرة " ولم يا أبا معاذ؟ " فقال " لثلا أرى من أبغض " ومن شعره:

وكيف يخف لى بصرى وسمعى      وحولى عسكران من الثقال؟  
 قعودا حول دسكرتى وعندى      كأ، لهم على فضول مال

بين حاله وحال غيره، وما يفضى به إليه نزوعه إلى التجبر، وما يلقاه من عنت الناس وإن كان قد كلفهم من ذلك فوق ما كلفوه، ومن المرارة الطبيعية التى عميقا. وكان نكتة أو كلمة سخر تكفى لشفائه منه. فقد كان أميل إلى المرح منه إلى الكآبة والحزن. وكان معنيا بانتهاب العيش واغتنام فرصه أكثر مما هو معنى بالتأمل والتدبر والتفكر. ومن هذا المعدن نفسه سخر بيته أو فكاهته.

وقوله " كأن لهم على فضول مال " معنى تكرر فيها روى من أخباره.

قال أحد رواة شعره - يحيى بن الجون العبدى - كنا عند بشار يوما فأنشدنا قوله:

وجارية خلقت وحدها      كأن النساء لديها خدم  
 (إلى أن يقول)

فلما رأيت الهوى قاتلى      ولست بجار ولا بابن عم  
دست إليها أبا مجلز      وأى فتى، أن أصاب - تنزم  
فما زال حتى أنابت له      فراح وحل لنا ما حرم  
فقال له رجل "ومن أبو مجلز هذا يا أبا معاذ؟" قال "وما حاجتك  
إليه؟ لك عليه دين؟ أو تطالبه بطائله؟ (يعنى بثأر) هو رجل يتردد بينى وبين  
معارفى فى رسائل".

وكان كثيرا ما يحشو شعره بمثل هذا إذا أعوزته القافية أو المعنى، وقد  
سأله مرة من معنى البصرة" فقال "وما عليكم منه؟ ألكم قبله دين فتطالبوه  
به؟ أو ثأر تريدون أن تدركوه؟ أو كفلت لكم به فإذا غاب طالبتمونى  
باحضاره؟"

حتى فى نكاته يتجه ذهنه إلى هذه الناحية. قالوا - مرت به جنازة  
مسرعة فقال "ما لهم مسرعين؟ أتراهم سرقوه فهم يخافون أن يلحقوا فيؤخذ  
منهم؟"

وتوفى ابن لبيش - كما سيجئ - فجزع عليه فقيل له "أجر قدمته،  
وفرط افتراطته، وذخر أحرزته" فقال "ولد دفتته وئكل تعجلته، وغيب وعدته  
فانتظرتة، والله لئن لم أجزع للنقص، لا أفرح للزيادة".

فهو حساب نقص وزيادة، وخسارة وربح، حتى فى هذا الموقف.  
وهذه الأخبار وما إليها - إذا صدقت - ظاهرة الدلالة. وإذا كانت  
موضوعة فهى مظهر لرأى معاصريه فيه.

وقد مضى بنا القول فى اعتزازه بنفسه، ومما هو بسبيل من ذلك ومما نحن فيه أيضا ما رواه بعضهم. قال "قلت لبشار إني أنشدت فلانا قولك:

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى

ظمئت. وأى الناس تصفو مشاربه؟

فقال لى "ما كنت أظنه إلا لرجل كبير" فقال بشار "ويلك.. أفلا قلت له: هو والله لأكبر الجن والإنس؟"

واستقل مرة عطاء فقال إنه ينصرف عن البخلاء، ويبقى "ثلج المقييل"

فى ظل عش عشيرة محمودة تندى يدي، ويخاف فرط لسانى  
وقال يخاطب خالد بن برمك:

فان تعطنى أفرغ عليك مدائحي وإن تأب، لم يضرب على سداد  
فهو يمدح على العطاء ليس إلا، ولا قيمة للفضل والمزية.

ركابى على حرف، وقلبى مشيع ومالى بأرض الباخلين بلاد  
إذا نكرتنى بلدة، أو نكرتها خرجت مع البازى، على سواد  
وتبدو هذه الروح أيضا فى قوله، وقد مر بك:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج  
وكذلك كان بشار فى حياته - لا يبالى شيئا، ولا يكثرث لأدب أو  
خلق أو مروءة - إلا نادرا - ولا يعنيه غير إدراك مبتغاه، فلم يعش بالفضيلة،  
أو لم يكن من همه، أو لم يكلف نفسه، أن يعيش بها. والذى كان منه فى  
حياته من الخير ما أحسبه كان إلا لأنه من إنسان إلا وفيه بعض الخير.

ويؤخذ من أخباره أنه توفي له ابن و بنت فى حدائتهما . وقد قال يرثى

ابنه

أجارتنا لا تجزعى وأنيبى      عجبت لإسراع المنية نحوه  
بنى على رغمى وسخطى رزته      أتانى من الموت المطل قليب  
وكان كريحان الغصون تخاله      وبدل أحجارا وجمال<sup>(١)</sup> قليب  
أصيب بنى حين أورد غصنه      ذوى بعد إشراق يسر، وطيب  
عجبت لإسراع المنية غصنه      وألقى على الهم كل قريب

وتذكرنا هذه الأبيات بقصيدة ابن الرومى فى رثائه لابنه محمد وقد

كات فى حدائته الغضة . وهى من أروع ما فى الشعر العربى ومطلعها -  
يخاطب عينه :-

بكاؤ كما يشفى، وإن كان لا يجدى      فجودا فقد أودى نظير كما عندى  
وفىها يقول:

ترخى حمام الموت أوسط صببى      قلله كيف اختار واسطة العقد  
على حين شمت الخير من لمحاته      وأنست من أفعاله سمة الرشد  
ألح عليه النزف حتى أحاله      إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد  
وظل على الأيدى تساقط نفسه      ويذوى كما يذوى القضيب الرند  
والأمر يقف عند هذا التشابه العام الذى يرجع إلى أن الموضوع واحد،

(١) الجال: الجانب.

وفرق بعيد بين القصيدتين . ولكن النفس فيها متقارب على الرغم من التفاوت .

ومات له بنيه، فقال بتنا ما كنت إلا خمسة أو ستا  
حتى حملت في الحشى وحتى فتت قلبى من جوى فانفتا  
لأنت خير من غلام بتنا يصبح سكران ويمسى بهتا

وحتى هنا يوازن، ويحسب، ويقيس! وعسى أن يكون الذى أغراه بالموازنة أنه لم يكن، كما يقول، يهوى البنات، وألفى نفسه مضطرا أن يرثى بنته ولم نقرأ أنه كان له غيرهما . ولما مات، قيل إنه لم يخرج وراء جنازته سوى أمه سوداء . فيبدو من هذا أنه لم يعيش له من ولده أحد .

وقد عمى بشار - كما نعرف - جنينا . وهذا لا يكون إلا لسبب، فما يعمى الجنين فى بطن أمه لغير علة من قبل أحد الوالدين أو كليهما، أو من مرض دفين موروث، وليس بمستبعد أن يكون أبوه قد أصيب بمرض تناسلى فذهب ببصر الجنين . ثم إن بشارا فقد ابنه وبنته وهما صغيران . وليست هذه آية صحة، وإن كان غير بعيد أن يكون الموت قد حدث فى هذه السن الغضة - الخامسة أو السادسة - من جراء الإهمال أو سوء العلاج أو الجهل أو غير ذلك على أن بشارا كان قوى البدن بآدى الصحة . وقد جاوز السبعين على الأرجح والتسعين على قول آخر مرجوح . ولم نقرأ شيئا عن مرض أصابه . ولا تسمح لنا قلة أخباره بأن نقطع فى هذا الأمر .